ارتباط نظرية الغزالي
في الأخلاق و التربية بعقيدة التوحيد

الدكتور الحافظ إحسان الحق

نستطيع أن نقسم عمل الغزالي بين جزأين: ...

١. مقاومة سيل الفلسفة و الباطنة ومحاربتهما بالدلالة الحاسمة حتى يتحقق الانتصار للعقيدة الإسلامية الصافية.

٢. نقد الانحلال الخلقي و انهيار القيم الأخلاقية في المجتمع المسلم اتخاذ الطرق الإصلاحية لرفع مكانته أخلاقيا و روحيا .

ضرب الغزالي على مبادئ الفلسفة والباطنة الملحدة ضربا قاسيا اللتان كانتا تهزان كيان الفكر الإسلامي هزا عنيفا فقام بالعملية الجراحية للفلسفة و كشف الستار عن ضعفها وهوانها وقلة استدلالها أمام الشريعة المطهرة. وقد اكتفى العلماء قبل الغزالي على دفاع الشريعة المطهرة ضد الفلسفة اليونانية فقط. و لم يجرأ أحد منهم على هدم مبادئها لأن لا يبقى المجال لوقوف العدو. بل ظهرت هناك طائفة ضلة (إخوان الصفاء) في أواخر القرن الرابع ساجدة أمام كبرياء الفلسفة تعتقد الشريعة ناقصة بدون مساندتها، فنادت إن الشريعة قد دنست بالجهالات. واختلطت بالضلالات. ولا سبيل إلى غسلها و تطهيرها إلا بالفلسفة. لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وإنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال.[1]

كما أننا نرى اليوم بعض المتجددين منا يناشدون لاختلاط الحضارة الغربية بحضارة الإسلام لئلا نتخلف عن مسايرة الركب الحضاري اليوم ونقف حائرين في الطريق إلى الأمام نظرا إلى تقدم الأمم المتحضرة. ولكن هؤلاء الحكماء المتنورون بالحضارة الغربية يجهلون الحقيقة إن شريعة الله خالدة لا تبلى بتقلبات الأزمان ولا تطرأ عليها القدم بتقدم الحضارات كما قال الشاعر الإسلامي الكبير علامة إقبال:

---

[1] أستاذ بقسم اللغة العربية – جامعة كراتشي.

زمانه ايك حيات ايك كائنات بهي ايك دلـــيـــل كم نظرى قصه قديم و جديد

ترجمة: (وكيف يأتي القدم على رسالة الله الخالدة) وإن الزمان واحد، والحياة واحـــدة، والكـــون واحد، أما البحوث حول القديم والجديد فهي بحوث تافهة.

فوقف الغزالي وقفة صامدة ضد تيار الفلسفة اليونانية وجعلها خاوية على عروشها، فعرض موقفـــها كباحث أمين في كتابه مقاصد الفلاسفة لخص فيه نظريات المنطقيين، والإلهيين، والطبيعيـــين ودون مباحثهم و دلائلهم بدون تحير، ثم جاء بكتاب آخر تهافة الفلاسفة نقد الفلسفة والفلاسفة فيه نقـــدا شديدا. فلم تكن لهجة الإمام في هذا الكتاب لهجة الاعتذار والدفاع بل كـــانت لهجتـــه الفلســـفة الشامخ، فيقول: لهجة المبارز الباسل المدمر لقصر الفلسفة الشامخ، فيقول: "قلنا ما ذكرتموه، وهـــي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه".

ثم فيقول: لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلا عن العقـــلاء الـــذي يشقون الشعر بزعم في المعقولات. ثم ينتقد على تصور الإله عند الفلاسفة انتقادا شديدا و قولهـــم إن العقلاء يستغنون عن طاعة الأنبياء الرسل يقول: "انتهى بهم التعمق في التعظيم (المبـــدأ الأول) إلى أن أبطلوا كل ما يفهم من العظمة وقربوا حاله من حال الميت الذي لا خبر له بما يجري في العالم إلا أنـــه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط، وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله والناكبين عن طريق الهـــدى المنكرين لقوله تعالى ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم الظانين بالله ظن الســـوء المعتقدين إن الربوبية يستوي على كنهها القوى البشرية ، المغرورين بعقولهم زاعمين إن فيها مندوحـــة عن تقليد الرسل واتباعهم فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأولى الألباب مقولاتهم رجعت إلى مـــا حكى في المنام لتعجب منه".[٢]

هكذا قام الغزالي بتشريح الفلسفة بأسلوب صارم حتى أزاح غبارها عن الوجه الإسلامي المشـــرق، وكان الغزو الفكري ضد الفلسفة من عمله الرائد الذي بلغ إلى ذروته في عهد شيخ الإســـلام ابـــن تيميه في القرن الثامن من الهجرة حينما ألف كتابه الشهير "الرد على المنطقين" فأثبت عدم توصـــل الفلسفة إلى الحقائق الغيبية التي أخبر بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، لأن الفلاسفة يضعـــون أساس تفكيرهم على المدركات العقلية بينما الرسل يدعون إلى علم حقيقي مبنى على وحي الربـــاني لأن مبدأ العلم الحقيقي هو الله، "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمهم و لما يأتهم تأويله"، "وما لهم به مـــن علم إن يتبعو ن إلا الظن"، "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم".

الرد على الباطنية : وقد توجه الغزالي إلى فتنة الباطنية فردها بكتاباته القيمة أثناء قيامه ببغداد وخـلال تدريسه في الجامعة النظامية، وهو جدير بأن يستأصل هذه الفتنة استيصالا كاملا، لأنه كان متحليـــا

بالفلسفة العقلية والعلوم الدينية معا فيدرك إدراكا تاما لعقلية الباطنة و مؤتمراها العقيدة الشريعة، هذه الفتنة تستند في معتقداتها إلى الفلسفة و تحيل ظاهر السريعة إلى الباطن وتحرف الكلم عن مواضعه، وتختار ما تشاء من المعاني لكلمات الله ورسوله، وكان الغزالي مستحلا بنفس الأسلحة فكشف الغطاء عن تحريفها وضلالتها وكتب كتابه الشهير في رد الباطنية "المستظهري" بناء على طلب الخليفة مستظهر بالله، ومن مؤلفاته غير هذا الكتاب "حجة الحق" و"مفصل الخلاف" و"فضائح الإباحية" و"مواهم الباطنية".

الإنجاز الإصلاحي:

أما المنجزات الإصلاحية للمجتمع المسلم فهو كتابه "أحياء علوم الدين" الذي وضح فبه نظرياته العلمية في الأخلاق و التربية في شرح و بسط. فأصبح مرجعا للعلماء والباحثين فقام بتخريج أحاديثه حافظ زين الدين العراقي ـ٨٠٦) واعترف بعظمته حافظ ابن الجوزي ولخصه في كتابه "منهاج القاصدين" مع أنه اختلف من آرائه في بعض المسائل.

وإنه وضع في هذا الكتاب النظام الكامل في الأخلاق و التربية و ربط علاقة العلم بالأخلاق فواسع دائرته و أكد أن العلم بدون الأخلاق والتربية لا يغني عن الإنسان شيئا ، وقد تعوذ من نوع هذا العلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع و نفس لا تشبع و علم لاينفع".

فقسم العلم في نوعين ظاهر وباطن، وللظاهر قسمان معاملة بين العبد وبين الله تعالى، ومعاملة بين العبد و بين خلق الله، وللباطن أيضا قسمان، أولا ما يجب تزكية القلب عنه من فقال في خطبة كتابه " أحياء العلوم" "ولقد أسسته على أربعة أرباع ربع العبادات، و ربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، أما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب، قواعد العقائد، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وتلاوة القرآن، والأذكار، والدعوات، والأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب. آداب الآكل و النكاح والكسب و الحلال و الحرام والصحبة و العزلة والسفر و آداب السماع والوجد والآمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأخلاق النبوة.

أما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب. شرح عجائب القلب، ورياضة النفس، وآفة الشهوتين البطن الفرج، وآفة اللسان، وآفة الغضب، والحقد، والحسد، وكتاب ذم الدنيا، والبخل، والمال، والجاه، والرياء، والكبر، والعجب، وكتاب الغرور. أما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب

أيضا. التوبة، الصبر والشكر، الخوف والرجاء، الفقر والزهد، التوحيد والتوكل، المحبة والشوق والرضاء، النية والصدق والإخلاص، المراقبة والمحاسبة، والتفكر، وذكر الموت.

فإذا نظرنا إلى هذا التفصيل من العناوين المذكورة لوجدنا أنه جمع بين العقائد و العبادات والمعاملات والأخلاق السيرة في هذا الكتاب لا يستغني عنه المسلم في أي وقت.

أما أسلوب الغزالي في كتابه فيمتاز بأسلوب نقدي وإصلاحي ولكن لا نعتبر هذا النقد نقدا لاذعا بل هو يدعو إلى التفكر و التدبر في الأعمال، يميل الإنسان إلى أن يخوض داخل ذاته ويبحث عن سيئاته واعوجاجه في السلوك، ومن أسلوبه النقدي أنه يوضح أسباب الفساد في المجتمع و مكايد النفس والشيطان، وتحريف المفاهيم الدينية و إيثار الناس حياة الدنيا على الآخرة، كما انتقد على طبقات المجتمع فذم بخل الأغنياء وظلم السلاطين و الأمراء وبين ما شاع من البدع والتقاليد السيئة بين المجتمع، و يضع المسؤولية الكبرى على عواتق العلماء للانحلال الخلقي والفساد العام في المجتمع فيقول الثالثة وهو الداء العضال الذي فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضو لهذه الإعصار مرضا شديدا و عجزوا عن علاجه ".[٣]

وكذلك انتقد الحكام بأنهم يهملون مسئولياتهم تجاه الأمة ولا يقومون بواجبهم فيقول: "وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك فلو لا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم".[٤]

وأما أسلوبه، فهو داعية يدعوا إلى الله بصدق النية والإخلاص يسألهم أجرا بل يطلب من الله لهم السعادة الأبدية، سعادة في الدنيا والآخرة إن شجرة الأخلاق والتربية عند الغزالي لا تنبت في الهواء بل لها جذور دساسة في أعماق الأنفس كان أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهو يربط الأخلاق والتربية بالعقيدة كي لا يتردد الإنسان في تقديم التضحية لإعلاء القيم الروحية و الأخلاقية، فترفع نظريات الغزالي بمذهب المنفعة (utilitarianism) الذي يدعي أن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشري، وإن الأعمال الصالحة إذا كانت نافعة، هذه النظرية للأخلاق لا تقوم على أساس دائم، بل تتغير فيه القيم الروحية والأخلاقية حسب تقلبات الأوضاع في المجتمع البشري، أما نظرية الغزالي للأخلاق والتربية فهي تقوم على أساس الدائم لعقيدة التوحيد والآخرة، وهذه العقيدة تجعل الإنسان قادرا على أن يتمسك بنظام الأخلاق والتربية الذي منحه الله سبحانه وتعالى فالإنسان يطيع أوامره طوعا في السر والعلن، لأنه يعتقد أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر من هو معهم أين ما كانوا، وكذلك عقيدة الآخرة تجنب

الإنسان عن مخالفة نظام الأخلاق و التربية الإلهي لإنه يؤمن إيمانا "إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله"، "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره".

يقول الغزالي فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل. عن محاسبة نفسه و التضييق عليها في حركاتها وسكناتها خطراتها وخطواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمة أبد الآباد، فانقضاه هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجب الهلاك خسران عظيم هائل تسمح به نفس عاقل.[٥]

وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟ فقال بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل.

"إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت و لكن قل علي رقيب

لا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا إن ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... و إن غدا للناظرين قريب[٦]

فيؤكد الغزالي تزكية النفس ، لأن ملاك حسن السيرة و الأخلاق صفاء النفس والقلب ، "قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها " وكما قال عليه الصلاة والسلام ألا إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب , يقول الغزالي :

اعلم إن أعدي عدوك نفسك التي بين جنبيك و قد خلقت إمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير و أمرت بتزكيتها و تقويمها و قودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها و خالقها و منعها عن شهواتها و فطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت و شردت و لم تظفر بها بعد ذالك و إن لازمتها بالتوبيخ و المعاتبة و العذل و الملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي اقسم الله بها و رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها و معاتبتها

الغزالي يربط الأخلاق بالإيمان و يعتبر سوء الأخلاق من النفاق فيقول :

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه و حسن خلقه و استغنى عن المجاهدة فلابد من إيضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الإيمان و سوء الخلق هو النفاق :

ومن مزايا الأخلاق أن الإنسان يتصف بصفة الاعتدال :

" قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل و كمال الحكمة و إلى اعتدال قوة الغضب و الشهوة و كونها العقل مطيعة و للشر أيضا".[٧]،

قد عرفت آن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل و كمال الحكمة و إلي اعتدال قوة الغضب و الشهوة و كونها للعقل مطيعة و للشر أيضا :

إنه لا يستخدم مصطلح الأخلاق كمصطلح تجريدي بل هو ينبه على الموبقات التي تقضي على أخلاق الإنسان فيشرح في كتابه جميع الأمراض القلبية و معالجتها بالتزكية و التهذيب و يؤكد ان آفات اللسان من فضول الكلام و الخوض في الباطل و المراء والجدال والغيبة والكذب والفحش و البذاءة وما إلى من ذلك آثام اللسان ، وكذلك يذم الغضب و الحقد والحسد والبخل والرياء والكبر والعجب وهذه الرذائل الأخلاقية العالمية تدعو إلى التجنب عنها جميع تعاليم السماوية و ضمائر الإنسان الحية.

و بجانب ذلك يؤكد على التحلي بفضائل الأخلاق العالمية من الصبر والشكر و الرجاء والتوكل والإخلاص والصدق وما ذلك من الفضائل تدعو إليها جميع الأديان السماوية ، فتصور الأخلاق عند الغزالي تصور يمل جميع جوانب الحياة و يقوم على أساس العقيدة الدائم ، وإذا تغلغل الإيمان في القلوب فلا تزعزعه الرغبات و الرهبات عن سواء السبيل بل تنبت منه شجرة تزدهر فيها أزهار الأخلاق الحسنة والفضائل الكريمة دائما.

نسأل الله التوفيق و السعادة في الدنيا و الآخرة و صل الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله و صحبه و بارك وسلم.

المراجع والمصادر

١ - أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، الجزء الأول ، ص ٢٣٣ ، مطبوعة مصر

٢ - نفس المصدر ، ص ٣١

٣ - الغزالي ، الأحياء ، ج ٢ ، ص ٥٤

٤ - نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٤

٥ - الأحياء ، ج ٢ ، ص ٣٣٧

٦ - نفس المصدر و نفس الباب

٧ - نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٥٦